ثلاثة نصوص للموفق البغدادي

أ. د. فيصل الحفيان

مدير معهد المخطوطات العربية - القاهرة

موفق الدين عبد اللطيف البغدادي واحد من أشهر أعلام القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، شُهِر بكتابه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، بيد أن لهذا العالم الموسوعي نتاجًا علميًّا متصلًا بالعلم (الطب والكيمياء) والفلسفة والتفسير واللغة... إلخ، ومما يؤسَف له أن هذا النتاج أو جزءًا لا بأس به لا يزال مستورًا.

من هذا المستور صدر مؤخرًا عن معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ثلاثة نصوص مهمة، بل بالغة الأهمية، ضمن مشروع تبنّاه المعهد لنشر مكتبة الموفق البغدادي.

النص الأول هو (كتاب النصيحتين للأطباء والحكماء) وهو فريد في بابه، فيندرج ضمن ما يعرف في التراث الإسلامي بكتب النصائح أو (كتب الوصايا)، ويتميّز بأنه يجمع بين نصيحتين لطائفتي الأطباء والحكماء، وبين الطب والحكمة علاقة وثيقة، فالطب مرتبط بالجسد، والحكمة مرتبطة بالنفس، ولقد صدر البغدادي عن نزعة نقدية جامحة لهاتين الطائفتين في زمانه، وركز في الطائفة الأولى على ابن سينا، ومن المفارقات أنه نظر إليهم بناء على بلدانهم، فأثنى على أطباء القسطنطينية وبغداد ومصر، وانتقد أطباء حلب. أما الحكماء فحالهم من وجهة نظره أسوأ من حال الأطباء، والسبب في ما آل إليه حال الطب والحكمة –من وجهة نظره– يرجع

إلى أنهم أهملوا أو هجروا حكمة القدماء، من أمثال جالينوس وبقراط. وهي دعوى قد لا تسلَّم له، على الأقل في ما علَّل به، على أن مناقشته في ذلك تحتاج إلى بحث تاريخي وعلمي واجتماعي ليس هذا محله.

النص الثاني تحت عنوان (المجادلة بين الحكيمين: الكيميائي والنظري)، وهو نص طريف يقوم على حوار علمي، ولربما كان هذا الحوار مجرد حوار افتراضي، تقمص فيه الموفق الشخصيتين المجهولتين فيما يريد من فكر وعلم، وقد انتصر في النهاية للنظري الذي هو -غالبًا- الموفق نفسه.

إنها مجادلة ماتعة في مضمونها، وفي لغتها، بين رجلين يمثلان تيارين في التراث الإسلامي، تيارًا يرى في الكيمياء اسمًا لا حقيقة تحته ولا معنى، وأن أصحابه الذين يقولون بإمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة هم محتالون وبلهاء، وتيارًا آخر مقابلًا، يرى أن الكيمياء هي صنعة الحكماء وعلم الأنبياء، وأسُّ الشريعة، ومفتاح العلوم وآخرها، بحسب عبارة الموفق.

أما النص الثالث الذي احتواه مع الثاني كتاب واحد، لما بينهما من صلة، فهو عبارة عن «رسالة في المعادن وإبطال الكيمياء»، وهو خلافاً لـ (المجادلة) لا يعتمد أسلوب الجدل، بل ينهض على أسلوب العلم القائم على التجربة، وإن كانا جميعًا يقولان مقولة واحدة هي: رفض الكيمياء وإبطالها.

وعلى الرغم من قيمة الموضوعين اللذين دارت حولهما النصوص الثلاثة لجهات عدة: العلم والتاريخ الثقافي والحضاري للمسلمين، فإن جهة أخرى ليس بالإمكان إغفالها، وهي: اللغة العربية التي كتبت بها هذه النصوص، لغة عالمية تميَّز بها الموفق، وإن شابها ما يعرفه الدارسون للرجل من حدَّة اللسان تخرج في أحيان كثيرة عن حدود التهذيب.

حقق النصوص الثلاثة د. محمد كامل جاد (مصري) وخدمها ضبطًا وتعليقًا وتكشيفًا ودرسًا، بما يشي بجهد علمي يستحقُّ التنويه، وخاصة أنها تنشر لأول مرة.